

الطب في السودان في ظل انعدام الرعاية

قبل الحديث عن الطب والتطبيب في السودان لا بد من الحديث عن البيئة وأثرها في صحة الإنسان في السودان. ففي بداية كل خريف، وبالذات في النصف الثاني منه تتزاحم أمراض كثيرة عندنا في السودان حتى ظن البعض أن موسم الخريف مربوط بالأوبئة، والأمراض! بينما الخريف معروف بأنه موسم ملؤه الخير والبركة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلِّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَا سَيِّ كَثِيرًا﴾، وغيرها من الآيات التي تخبرنا بعبء الخريف الذي لا ينضب، فلو أن شخصا عبر ومر بالسهول والجبال والصحاري قبل مجيء الخريف يراها سوداء مظلمة متهشمة، وجرء قاحلة، ولكن الأماكن نفسها لو مررت بها بعد مجيء الخريف، ترى العجب؛ فالخضرة والنضرة والورود والرياحين تدخل في النفس المسترة، تكاد تكون جنة الله في الأرض، ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ فضلا عن عطائه سبحانه وخيره، الذي يعود على الإنسان والحيوان.

ولكن بعد مجيء الخريف في القرى والحضر، ولسوء رعاية الشؤون الذي امتازت به الحكومات التي تعاقبت على حكم السودان، منذ خروج الاستعمار إلى يومنا هذا، قرابة السبعة عقود، هناك مجاري المياه لم يجر لها تعديل ولا صيانة، حتى تهشمت وتكسرت، وجرفت المياه، في وقت تمتلك فيه الدولة الجرافات والجرارات وجيوشاً من العمال فتركت المجاري تنهار وصارت عبارة عن غابات من الأشجار والشوك، وخشاش الأرض، فحالت دون مياه المطر وسيهه إلى الأنهار والحفائر، فضلاً عن تراكم الأوساخ التي صارت كالجبال الراسيات في شوارع المدن، بل في العاصمة القومية بمدنها العريقة، فإذا دخلت أسواقها وبالذات أسواق الخضرة والفواكه، واللحوم والأسماك، أو مررت بمجمعات المطاعم الكبيرة فترى العجب! ترى تراكمات من الأوساخ التي مكثت الشهور الطويلة في مكانها فتجد ما يسوؤك قذارة وعفانة ونتاجة، وأعجب من ذلك وأقبح وأقدر، هذه البرك من المياه الراكدة، التي خالطت النجاسات من مخلفات الإنسان، والمعروفة بمياه الصرف الصحي، خالطت مياه الشرب، والغريب في المسألة أن هذا العبث لا يحدث في بلاد الواق الواق، وإنما في الخرطوم، أمام أعين المسؤولين وموظفي الدولة في العاصمة، بل في أرقى أحياء العاصمة!

هذه الأوساخ والبيئة الفاسدة مع مجيء الخريف، وانخفاض درجات الحرارة شكلت ملاذاً آمناً لتولد جيوش من البعوض والخنائس والديدان والجنادب والضفادع والفئران والعقارب والحيات والذباب، وتحولت أيام الخريف بدل النضرة والخضرة والجمال، إلى عهود بني إسرائيل عندما خلفوا أمر نبي الله موسى عليه السلام، فأرسل الله عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، فهم استحقوا عذاب الله بكفرهم! أما نحن فلسكوتنا على هؤلاء الحكام الفسقة استحقنا العيش في هذه الأوضاع المتردية.

ولا ينصلح هذا الأمر إلا مع وجود راع يرعى شؤون الأمة، فوجود الحشران يعني فساد البيئة ودونكم تداعيات فيروس كورونا الذي راحت ضحيته مئات الآلاف من الأنفس لتخبط الحكام العشوائيين، وتعاملهم السيئ مع الواقع، ونحن في السودان نعاني من سلبيات هذه الحشرات والكائنات كلها، ولكن الذباب والبعوض أكثر هذه الكائنات ضرراً وخطراً على حياة الناس، وإن كان كل واحد من هذه الكائنات لها دوره وخطره في إفساد البيئة. غير أن الذباب يعمل بالنهار ليعكر صفو حياة الناس، وهو سريع النقل للأمراض والفيروسات وبالذات وسط الفقراء الذين إذا وجدوا الطعام لا يجدون الكساء، حتى الناموسية في الحد الأدنى لا يستطيع الفقير أن يمتلكها. والغريب أن هذه الأمراض ليست وليدة اللحظة حتى نعتذرهم، وإنما هي قديمة قدم الحياة، فهي قتلت الآباء والأجداد والآن أحاطت بالأبناء من كل جهة، وإن كانت هناك أمراض جديدة خطيرة وفتاكة.

أما الطب في السودان فهو كالمينبت الذي لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، فلا هو ترك الناس وشأنهم ليتعالجوا بالدواء التقليدي وخبرات العشابين، وأهل البصيرة، الذين ورثوا هذه الخبرات كابراً عن كابر، فهؤلاء يملكون علاجاً فعالاً؛ كالعسل والحجامة والأعشاب... فالطب في السودان ما ترك الناس وشأنهم بل حجبه من الإعلام، وعمدوا أن لا يدرجوه مع العلم الأكاديمي حتى مات الكثير من هؤلاء ودفنت معهم خبراتهم، ولا حتى تقدم أكاديميا ليلحق بالركب، ويصل العالم بالحدثة وبالطفرة التكنولوجية في الطب الحديث، وبهذا حق للطب في السودان أن يوصف بالمينبت وهو أكثر ما فعله للرعية أن جعل منهم حقل تجارب، ومورداً لجباية المال، فعلى سبيل المثال دخول المريض إلى المشفى الحكومي عليه بمبلغ من المال يدفعه للمقابلة ثم تتوالى الفواتير. ويواصل المريض في دفع الثمن حتى خروجه، أما الزوار الذين جاءوا لعيادة المريض، والذي أمر به ديننا الحنيف، فهو أيضاً يدفع، ثم يفاجأ بحملة رجال الشرطة تطرد الزوار خارج حوش المشفى إلى الشارع من غير مراعاة لحرمة فعلتهم!

أعرفتم كيف يتفنن الطب في السودان في أكل المال الحرام؟! وبهذا نكون لمسنا القارئ بأن الطب في السودان أكثر خدمة يقدمها للرعية هي الإذلال والإهانة، ونهب ماله، لذلك فنحن نشحذ هم أبناء المسلمين ونبين لهم كرامة الإنسان، وأنه لا كرامة في ظل النظام الرأسمالي الذي يتشدد بالإنسانية، فلم يبق للبشرية إلا الإسلام الذي علمنا الرفق بالحيوان، فكيف بالإنسان؟! جاء وفد رفيع المستوى إلى إحدى مستشفيات دولة الخلافة فزار المشفى ودخل جناح النفسانيين (المجانين) فرأوا عناية فائقة، فانددهشوا من هذه العناية، فسألهم أحد أطباء المسلمين ماذا يصنع بالمجانين في بلادهم؟ فقالوا بالحرف الواحد إنه لا وجود للمجانين عندهم لأن الدولة تجمع المجانين وتسكب عليهم الوقود ثم تحرقهم بالنار!! وتكرر ذلك مع كبار السن في القرن العشرين مع تداعيات كورونا، فالبشرية لا تنعم ولا يمكن أن يعيش الناس بصحة وعافية ومجتمع معاني، إلا بالإسلام الذي تطبقه دولة الخلافة الراشدة على منهاج النبوة، وهو كائن قريباً، بإذن الله.

كتبه لإذاعة المكتب الإعلامي المركزي لحزب التحرير

الأستاذ علي سوار – ولاية السودان